جوانب من تاريخ الخليج العربي في عصور ما قبل التاريخ

الدافن الخليجية ومدلولاتها الحضارية

رضا الهاشمي
استاذ مساعد
كلية الآداب - جامعة بغداد

■ ■ مقدمـــة

تعد دراسة تاريخ وحضارة الخليج العربي في عصوره القديمة من المباحث الحديثة المنشأة في مجمل دراسات الشرق الأدنى القديم . فقد مضى على دراسة تاريخ وحضارة مصر القديمة أكثر من قرنين من الزمان[1] ، ومثل ذلك الزمن تقريباً تخطته دراسات حضارة بلاد وادي الرافدين[2] وسوريا والأناضول وإيران وبعض مناطق الجزيرة العربية ، وبخاصة العربية الجنوبية[3] وأنجزت خلال تلك الفترة دراسات مستفيضة أعتمدت المخلفات المادية من كتابات قديمة وأبنية ومواد بيتية ومنحوتات وتماثيل وغيرها من اللقى الأثرية ، وشملت هذه الدراسات مختلف نشاطات سكان المراكز الحضارية القديمة ، السياسية والأقتصادية والأجتماعية والفكرية وغير ذلك من جوانب الحياة الأنسانية .

وفي الوقت الذي تكشفت فيه جوانب واسعة من التاريخ والحضارة لمعظم مراكز حضارات الشرق الأدنى القديم ، كان الغموض التام يحيط بمعلومتنا عن مناطق واسعة من جزيرة العرب ، ومنها بشكل خاص ، الخليج العربي[4] . ولا نكون مبالغين إذا قلنا أن الدراسات العلمية الحقيقية في الخليج العربي بدأت مع مطلع الخمسينات من هذا القرن ، وذلك عندما بدأت بعثة أثار دانمركية العمل في البحرين عام ١٩٥٤[5] واستمر عملها وتوسع ليشمل مناطق مختلفة من الخليج العربي تنتشر على طول إمتداده من رأسه في الشمال الغربي على مقربة من الحدود الجنوبية لبلاد وادي الرافدين ، والى حدود مضيق هرمز عند دولة الأمارات العربية المتحدة في الجنوب الشرقي ، كذلك شمل نشاط هذه البعثة مناطق الأستيطان القديمة في الجزر والسواحل العربية على السواء للخليج العربي[6] . ويمكننا أن نشير دون مبالغة الى أن نتائج أعمال هذه البعثة لفتت انتباه الكثير من المؤسسات والمعاهد العلمية والجامعات للتفكير أو البدء بالأعمال الحقلية في بعض مناطق الخليج . وهكذا توالت في السنوات الأخيرة بعثات أمريكية وفرنسيه وأنكليزية . كذلك أخذت بعض الأقطار العربية من خلال مؤسساتها الآثارية ، تساهم بشكل فعّال ، فنشط الآثاريون العراقيون والسوريون بالأضافة الى خبرات دول الخليج العربي الوطنية في المشاركة بأماطة اللثام عن مزيد من إحداث التاريخ والحضارة لهذا القسم الهام من الجزيرة العربية[7]

إن النتائج التي توصلت اليها جهود مختلف البعثات التنقيبية خلال ربع القرن الأخير ، تسمح لنا اليوم برسم صورة شبه واضحة عن بعض الجوانب التاريخية والحضارية للخليج العربي ، وبخاصة في حركته الحضارية وصلاته الرئيسية ، حيث نتبين منها عمق صلاته بحضارة بلاد وادي

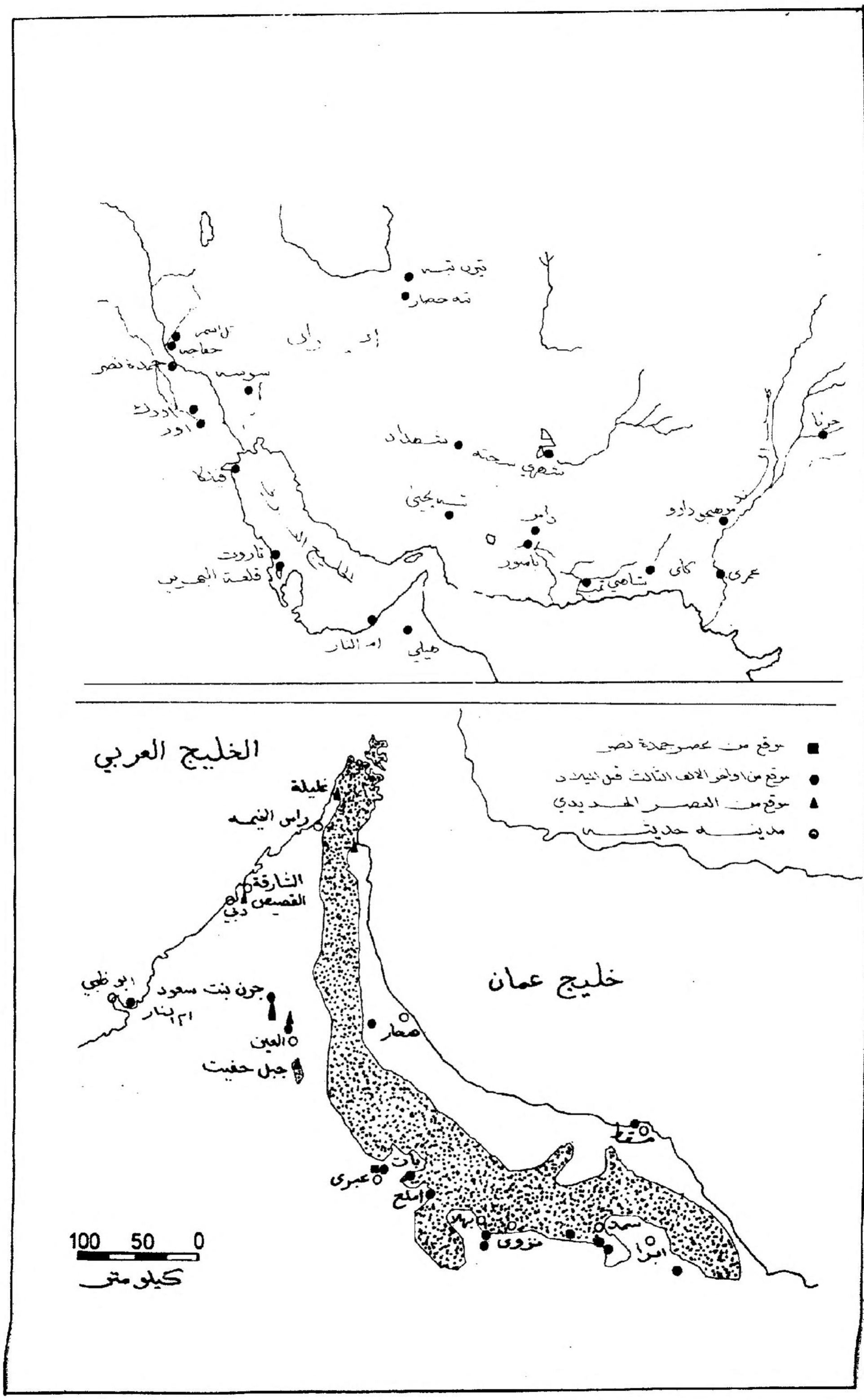
بقرة تبسه
تله حصار
حماة
سوسه
اودك
اود
شمشاط
سحته
شهري
قنطا
تل بجين
دامر
ناصور
موهنجو دارو
حرنا
كماى
عمرى
نادوت
قلعة البحرين
هيلي
ام النار
الخليج العربي
خليلة
راس الخيمه
الشارقة
القصيص
دبي
ابو ظبي
جرن بنت سعود
٢١ بنار
العين
جبل حفيت
خليج عمان
صحار
مسقط
بات
عبرى
املح
سمد
ابرا
مزوى
■ موقع من عصر جمدة نصر
● موقع من اواخر الالف الثالث قبل الميلاد
▲ موقع من العصر الحديدي
○ مدينه حديثه
100 50 0
كيلو متر

الرافدين التي تحتل مركز الصدارة في هذا الجانب . كذلك نحاول أن نوضح من خلال هذه الصورة ، الجوانب التي أشارت اليها الكتابات المسمارية غالباً ، لنجد لها اليوم صدى في المخلفات المادية التي تكشف عنها أعمال الحفريات في الخليج العربي .

سبق لنا أن استعرضنا في بحث سابق[٨] الصورة التي تعكسها الكتابات المسمارية وغيرها من مصادر كتابية قديمة عن الخليج العربي ، وسنحاول إبتداءاً من هذا البحث أستعراض جوانب من نشاطات سكانه الحضارية وفي صلاتهم بمراكز الحضارات القديمة . وقد وقع اختيارنا على المدافن للأسباب التالية :

١ ـ كانت الأعداد الهائلة من المدافن في البحرين (يبلغ عددها زهاء مائة ألف قبر) أول ما لفت الانتباه في التوجه لدراسة تاريخ الخليج العربي القديم ، وهكذا أستهدفتها أولى الأعمال التنقيبية في الخليج العربي .

٢ ـ لكون المدافن ترتبط بالفكر والمعتقدات الدينية ، لذلك نأمل أن نوضح من خلالها صورة المعتقدات الدينية القديمة في الخليج العربي .

٣ ـ تكون المقابر عادة غنية بموادها الأثرية ، وتكون ، في حالة سلامتها من التخريب وأعمال السرقة خير عون للأثاريين في دراساتهم العلمية ، كدراسة الجوانب التقنية والفنية والصلات الحضارية .

٤ ـ ولأن المقابر تمثل جانباً معمارياً ، فهي تقدم صورة جيدة للقدرات العلمية والتقنية في أساليب البناء ، مع معرفة المواد واسلوب العمل ، كما ترسم لنا هذه المقاييس صورة واضحة للمقارنة الحضارية . فلهذه الأسباب مجتمعة بدأنا في عرض تاريخ الخليج العربي بالمدافن .

تنتشر في معظم مناطق الخليج العربي مجموعات كبيرة من المدافن الحجرية ذات التخطيط الخاص والعمارة المتميزة . وتجتمع بعضها باعداد هائلة في منطقة معينة بحيث تشكل ظاهرة أرضية أو بنائية تميز تلك المنطقة . وتبدأ هذه القبور في توزعها على مناطق الخليج العربي من جزيرة فيلكة شمالاً مروراً بجزر البحرين فشبه جزيرة قطر والى عمان في اقصى إمتداد الخليج العربي الجنوبية . ومثلما تصادفنا هذه القبور في جزر الخليج العربي ، نجدها في أقسام مختلفة من الأرض العربية المتاخمة لساحل الخليج ، من حدود الكويت شمالاً فمنطقتي الأحساء والقطيف (الهفوف) في المملكة العربية السعودية والى منطقة العين وواحة البريمي وحتى سفوح جبل حفيت الذي يمثل الحد الفاصل بين الأمارات العربية المتحدة وسلطنة مسقط وعمان .

كانت الأعداد الهائلة لبعض مجموعات هذه المدافن هي التي لفتت نظر وانتباه الضباط العسكريين من أمراء البحرية البريطانية الذين كانوا يعملون على تثبيت مصالح حكوماتهم في المياه الستراتيجية للخليج العربي . لذلك رصدت عيونهم كل ظاهرة مميزة في مناطق الخليج العربي ، على أرضه أو في طبيعة سكانه .

ولهذا السبب وصلتنا أولى الاشارات الى مدافن الخليج العربي ، وبخاصة مدافن البحرين منها ، من قبل هؤلاء الضباط البحريين البريطانيين ، كما أن جانباً من بدايات دراسة آثار وتاريخ الخليج العربي يرتبط باسمهم . ولا أدلّ على ذلك من الكتاب الواسع الأنتشار الذي وضعه أميرال البحرية البريطانية في البصرة A. Wilson تحت عنوان «الخليج العربي[٩]» حيث نجد في فصول هذا الكتاب دراسة تاريخية مفصلة للخليج العربي منذ أقدم عصوره وحتى فترات قريبة من تاريخه الحديث ، ولا يزال هذا الكتاب الذي وضعه مؤلفه عام ١٩٢١ ، وأعيد طبعه (عدة مرات) مما يؤكد أهميته وسعة إنتشاره .

أشرنا قبل قليل الى أن القبور الحجرية ذات الشكل التلي والمنتشرة بشكل رئيسي في الأقسام الشمالية من جزيرة البحرين ، كانت البداية التي لفتت إنتباه الضباط البريطانيين وكذلك العاملين في حقل الآثار .

وكان لعددها الهائل الذي يربو على ١٠٠,٠٠٠ قبر ، سبباً في تركيز الجهود التنقيبية أو الأستكشافية في منطقة الخليج العربي بهذه القبور[١٠] والى مطلع الخمسينات من قرننا الحالي ، لم يتصور أحد أن تكون هذه القبور أسلوباً معمارياً عاماً يشمل منطقة الخليج العربي عامة وربما يتجاوزها الى مناطق أخرى من أرض الجزيرة العربية ، كذلك لم يتصور أحد أن تكون قبور البحرين تخص سكانها القدماء الذين تركوا مخلفاتهم البنائيه وجوانب من فنونهم وصناعتهم في بقايا مدينتهم القديمة التي شخصت طبقاتها الأثرية عند الحافات السفلية للقلعة البرتغالية التي تقع في أقصى شمال غرب جزيرة البحرين . وهكذا كان حال القبور التي كشف عنها في

مناطق أخرى من الخليج ، حيث كشف بالقرب منها أو بجوارها على بقايا مستوطنات السكان القدماء لمنطقة الخليج العربي .

ولأن مقابر البحرين ، كانت المجموعة الأولى التي شخصت في الخليج العربي ، شهدت بدورها أعمال حفريات أثرية مبكرة بغية التعرف على تخطيطها وأسلوب الدفن فيها وفترتها التاريخية ، وما يمكن أن تعكسه مواد الدفن فيها من حضارة أصحابها .

ترتبط أقدم أعمال حفريات أثرية في مقابر البحرين باسم الكابتن ديوراند أحد موظفي الخارجية البريطانية المعتمدين في البحرين ، والتي نفذها عام ١٨٧٩م ، وعلى الرغم من أن هذا الرجل لم يكن من المتخصصين في الآثار ، لكن آراءه التي أستخلصها من نتائج تنقيباته في مدافن البحرين بقيت قيمة ورجيحة حتى وقت قريب . فقد وصف لنا عظمة حقول المدافن ، وفتح واحداً من قبور «عالي» الكبيرة ووصف بناءه وبسبب ضخامة البناء ، شك ديوراند أن يكون هذا التشييد مخصصاً للدفن . ولكن أبرز إنجاز قام به ديوراند يتمثل في إكتشافه لأول كتابة مسمارية في البحرين ، نحت على حجارة سوداء من البازلت وكانت وقت أكتشفها ديوراند مبنية في جدار أحد جوامع البحرين ، والحجرة بالأصل ربما كانت حجرة أساس ، تحمل أربعة أسطر من كتابة مسمارية نقرأ فيها :

«قصر ريوم ، خادم الأله انزاك ، رجل (قبيلة) أكاروم (هجاروم)» .

وعلى الرغم من كونها مختصرة جداً ، لكنها ذات دلالة علمية فائقة الأهمية حيث تتوضح منها بشكل خاص اسم الاله »انزاك» لذلك فهي تعد أشارة محتملة جداً لتشخيص جزيرة البحرين وربطها بدلون القديمة . لان الأله «انزاك» ورد ذكره بمعية الاله «نابو» كألاهين من آلهة دلون ، وقد ورد ذلك في قائمة باسماء الآلهة عثر عليها في مكتبة آشور بانيبال في نينوى وترجمتها كما يلي : «الاله انزاك ، الاله نابو (آلهي) دلون» .

كانت كتابة حجرة البحرين المسمارية ، وارتباط اسم الاله «انزاك» بدلون ، بداية توجه الدراسات صوب ربط دلون القديمة بالبحرين الحالية ، وقد وصلت هذه الدراسات في نهاية مطافها الى قناعة تامة بهذا الأرتباط[٧٦]

ومما يجدر التنويه به ، هو أنه رسم بجوار الكتابة على حجرة البحرين صورة سمفة ، مما يدعم فكرة إرتباط الكتابة والحجرة التي تحملها بمنطقة البحرين التي تشتهر تاريخياً بانتاج التمور وتصديره[٧٧] .

أما العمل الثاني المرتبط بمقابر البحرين فيتصل باسم الكولونيل برادوكس أحد موظفي الحكومة البريطانية في الهند ، حيث أرسلته حكومته لأستكشاف مقابر البحرين عام ١٩٠٦ م . وعلى الرغم من ضخامة حجم قبور منطقة «عالي» لكن هذا الضابط حفر في ثمانية منها مرة واحدة ، وأعتمد أسلوباً في التنقيب مرفوضاً حالياً بالأستناد الى الأساليب العلمية في التنقيبات الأثرية . فقد عمد الى حفر أنفاق تخترق جسم البناء الحجري للقبر وصولاً الى حجرة الدفن .

وكانت عنابر الدفن التي كشف عنها كبيرة الحجم وتشابه في مخططها غرف الدفن التي كشف عنها مكاي (سنتعرض الى أعماله بعد قليل) . ولكنها كانت خالية إلا من لقىٰ أثرية قليلة ومتفرقة . وكان تشخيصاً صائباً من برادوكس قوله بأن قلة المواد الأثرية وتبعثرها سببه أعمال سرقة سابقة تعرضت لها هذه القبور . وكان من بين المواد التي عثر عليها خاتمان ذهبيان وأجزاء من تماثيل عاجية صغيرة . وكانت أجزاء التماثيل العاجية هذه وراء أعتقاد برادوكس بأن تكون هذه المقابر فينيقية . وقد ثبت بعد عشر سنوات من تاريخ إكتشاف التماثيل العاجية في قبور البحرين ومن خلال أكتشاف مجاميع كبيرة من العاجيات في عواصم الآشوريين ، بأن جميع هذه العاجيات ليس لها علاقة بالفينيقيين .

أما الشخص الثالث الذي عمل في تنقيبات مقابر البحرين فهو آرنست مكاي ، الذي لمع أسمه بعدئذ إثر النتائج الهامة لتنقيباته في موهنجدارو . كذلك نفذ هذا الآثاري مواسم تنقيبات في كيش وجمدة نصر في العراق في الأعوام ما بين ١٩٢٩ ـ ١٩٣١ .

ففي عام ١٩٢٥ ، أرسله فلندز بيتري ، عالم الآثار المصرية المشهور ، من مصر الى البحرين ليحل غموض مقابر البحرين . ففتح حوالي (٥٠) قبراً ورسم مخططاتها ومقاطعها ووضع قوائم بموجوداتها الأثرية . وأبان تقرير مكاي بأن لكل قبر غرفة دفن مستطيلة مشيدة بالحجر

ومسقفة به أيضاً وتتجه من الشرق الى الغرب تقريبا ولها مدخل على جانبها الغربي ، ولمعظم القبور التي نقبها مكاي مقطع على شكل حرف -T- اللاتيني .

وينخفض مستوى السقف في نهاية الغرفة التي تكون لها حنيات جانبية مع وجود إختلاف في التخطيط التفصيلي ، فبعضها له حنية واحدة وأحياناً حنيتان ـ أما الموجودات الأثرية فكانت مبعثرة تماماً بما في ذلك عظام الأموات ، فاعتقد مكاي أن هذه الأجزاء من الهياكل العظمية قد أعيد دفنها بعد أن أحرقت في مناطق خاصة خارج القبور . وعلّق على كسر الأواني الفخارية بأنها تشير الى طقوس دينية لها علاقة بالدفن تقضي بذلك . وأضاف مكاي في تقريره عن هذه المدافن وعن جزيرة البحرين ، بأن الجزيرة لم تستوطن خلال فترات تاريخ هذه المدافن وأنما أستخدمت كمكان دفن من قبل سكان الأرض العربية المجاورة .

وهكذا واجهت البعثة الدانمركية عند بداية عملها في البحرين هذه النتائج السابقة لأعمال حفريات غير علمية أو غير دقيقة ، مقرونة بالفرضيات المتعددة التي قدمها من سبقهم في أستكشاف المقابر . فأرنست مكاي يقترح بأن تكون البحرين خلال الألف الثانية ق . م . أرضا للدفن استخدمها سكان الأرض العربية المجاورة ، وبرادوكس يعتقد بأن البحرين كانت قديماً موطناً للفينيقيين قبل نزوحهم منها الى شرق البحر المتوسط ، وكان يجد في عبارة وردت في تاريخ هيرودتس دعماً لرأيه ومفادها ، أن الفينيقيين على عهده (عهد هيرودتس يرجع لحدود منتصف القرن الخامس ق . م .) يدعون بأن أجدادهم جاؤوا من الخليج العربي . ولكن أرجح الآراء ذلك الذي دعي اليه ديوراند وطالب فيه بأن يؤجل البت في أمر هذه المقابر الى المستقبل[13] وقبل أن نشير الى أعمال البعثة الدانمركية في قبور البحرين ، نضيف الى قائمة الباحثين شخصاً آخر كان له نصيب المساهمة في حفر عدد من قبور البحرين ، وهو الدكتور كورنوال ، والتي نفذها خلال فترة الحرب العالمية الثانية والمهم ان هذا الباحث كتب فيما بعد سلسلة من المقالات التفصيلية وقدم من خلالها الادلة اللازمة لتشخيص الموقع الجغرافي للدلون القديمة وربطها بالبحرين الحالية[14] .

تعد أعمال البعثة الدانمركية في الخليج العربي وتنقيباتها في المقابر من أوسع النشاطات العلمية بهذا الخصوص . فقد بدأت البعثة تنقيباتها الفعلية عام ١٩٥٤ وأستمرت لحدود عام ١٩٧٠ . ولم تقتصر أعمالها على منطقة البحرين بل شملت أقساماً واسعة من الخليج العربي ، من حدود قيلكا شمالاً والى الأمارات العربية المتحدة جنوباً . كما توزعت أعمالها على الساحل العربي وفي الجزر العربية للخليج ، لذلك غدت الصورة التي رسمتها لنا البعثة عن الخليج العربي في عصوره القديمة من أكثر الصور تفصيلا على الرغم من كونها غير كاملة بعد . خاصة وأن أعمال البعثة الدانمركية لم تقتصر على التنقيب في المقابر فحسب ، بل شملت مناطق استيطانية عديدة ، كذلك أستكشفت مناطق أخرى أوسع ، تعد مراكز عمل لمستقبل الأعمال الآثارية في الخليج العربي[15].

وهذا ما يتم فعلاً في العديد من مناطق الخليج العربي ، حيث أخذت في السنوات الأخيرة ، بعض البعثات العربية والمحلية تشارك بقسط لا بأس به من مقتضيات أعمال التنقيب والصيانة ، منها الحفريات التي بدأها قسم الآثار بدائرة التربية والتعليم البحرانية مطلع عام ١٩٧٠ ، والتي شملت مجموعة من قبور منطقة الحجر ، حيث أضافت نتائج أعماله الى معلوماتنا عن هذه القبور أموراً هامة جداً[16]، وهكذا يتضح لنا بأن توسيع دائرة الأعمال التنقيبية في مقابر الخليج العربي سيحسم لنا كثيراً من المعوقات التي تعترض سبيلنا لمعرفة الأحداث الحضارية لمنطقة الخليج العربي .

المدافن الحجرية التلّية* : Tumuli

ذكرنا سابقاً أن مقابر البحرين كانت البداية لأكتشاف أعداد هائلة من المقابر تنتشر على طول إمتداد الخليج العربي . وأن الشكل العام الظاهري لهذه المقابر يختلف بعض الشيء من منطقة لأخرى مع الاحتفاظ بالخصائص العامة للتخطيط والوظيفة ، فالشكل الظاهري الذي يغلب على مقابر البحرين ، هو شكل تلال أو كثبان رملية تقريبه جداً من الأشكال الطبيعية لهذه الظواهر الأرضية . وتختلف هذه التلال الأصطناعية التي تضم في جوفها بنىً حجرياً متقناً متعدد الأقسام ، في إرتفاعها تبعاً لحجم البناء الحجري الداخلي . فمنها ما يرتفع عن سطح الأرض الى علو يتراوح ما بين (٦ ـ ١٢) قدم . وهي الغالبية العظمى من مقابر

* كان الشكل التالي لمدافن البحرين هو الذي اوحىٰ باستخدام لفظة Tumuli وهي من : barrow or burial — mound = Tumulus
وهي مدافن حجرية منها مستطيلة واخرىٰ دائرية الشكل يرجع زمنها للعصر البرونزي (الالف الثالث ق .م . يشيد القبر من قطع حجرية ثم يغطىٰ بالتراب او الحجارة مكوناً تلاً حجرياً او ترابياً . وشيع النوع الدائري من هذه القبور في معظم انحاء انكلترا . James Stewart An Archaeological Guide and Glossary, London 1960 p. 35 — 36

البحرين[٣٧]، ومنها قبور عملاقة الحجم ، يظن بأنها قبور ملكية ، يصل إرتفاع الواحد منها لحدود (٤٠) قدم ، بينما يصل إرتفاع بعضها الى حد يتراوح ما بين (٦٥ ـ ٨٠) قدم . ولكن القبور الكبيرة الحجم هذه قليلة العدد بالقياس الى أعداد قبور البحرين . حيث لا تزيد عن ثلاثين قبراً .

تحتل المدافن في البحرين مساحة قدرها عشرون ميلاً مربعاً ، وتتركز في الأقسام الشمالية الغربية من الجزيرة ، وتغطي هذه المساحة الواسعة المنطقة الممتدة بين قرية «عالي» (وتجاورها قبور البحرين العملاقة المعروفة بقبور عالي) وطريق الهملة مارة بالبساتين المحيطة بقرية دمستان وكرزكان والمالكية .

تخطيط مدافن البحرين :

من الصحيح جداً بأن الصورة الكاملة لمدافن البحرين لم تستكمل أبعادها بعد ، بسبب نقص أعمال التنقيب فيها ، وهذا ما يؤكد اكتشاف مقابر سلوقية من نوع «المقبرة الجماعية» على جانبي شارع البديع[٣٨]. ولكن أسساً عامة مشتركة تجمع بين هذه القبور بالأستناد الى القبور المنقبة ، مع ملاحظة وجود فروقات ثانوية ، كفرق حجم القبر ومساحته وعدد عنابر الدفن فيه وغير ذلك .

إن النموذج العام لمقابر البحرين يتمثل في المدفن المفرد ، أي القبر المستخدم لميت واحد ولمرة واحدة .

إن شكل القبر عبارة عن غرفة مستطيلة الشكل شيدت بحجر غير مهندم تمتد من الشرق الى الغرب ، ومدخلها في الجهة الغربية . وفي نهاية المستطيل أي الطرف المقابل للباب تنفرج فسحة المستطيل صوب الشمال والجنوب مكونةً شكلاً مستطيلا إمتداده من الشمال الى الجنوب ، بحيث يأخذ تخطيط القبر شكلا عاماً يشبه حرف (T) اللاتيني . وقد فرشت أرضية القبر بقطع الحجارة غطيت بطبقة رملية ناعمة قبل الشروع بدفن الميت .

وقد تأكد كون الطبقة الرملية لها علاقة بطقوس الدفن ، حيث لوحظ وجودها في غرف الدفن للطابق الثاني في المدافن المزدوجة .

وكانت هذه القبور تغطى بقطع حجرية كبيرة تملأ فضاء السقف الذي يشكله البناء المستطيل الشكل الذي لا يزيد عرضه عن متر واحد . وقد شوهدت قطع حجارة السقف ساقطة داخل القبر بعد أن تعرض القبر لاعمال السرقة ، حيث شرعت تلك الأعمال اللصوصية لتنفيذ مهمتها بحفر خنادق من أعلى قمة التل الترابي الذي يغطي البناء الحجري ، فكان تضرر بناء السقف أبلغ من الأقسام الأخرى .

إن مدخل القبور يرتفع عن مستوى سطح الأرض بصف أو صفين من الحجارة تشكل عتبة المدخل .

وأحيط بناء القبر بجدار شيد من تراكم حجر غير مهندم لا يزيد إرتفاعه عن (٥٠) سم يحيط القبر بشكل دائري ، ثم يتلو ذلك أحاطة البناء المستطيل الشكل وجداره الدائري الخارجي بركام رملي . يشكّل المظهر الخارجي العام للقبر ويجعله على شكل كثيب رملي أو تل رملي .

المدفن المزدوج :

وهو النوع الذي يشير تخطيطه الى دفن أكثر من شخص واحد . ولكن هذا النوع من المدافن قليل عددياً بالقياس الى النوع الأول . ومن نماذجه بعض قبور عالي ، وأخرى قريبة من قرى الجنبية والقرية وسار .

ويشابه تخطيط المدفن المزدوج المدفن المفرد ، مع ملاحظة كون الجدار الدائري الحجري الذي يحيط القبر يميل عند إرتفاعه نحو الداخل تدريجياً . مما يدعو للأعتقاد بأن المدفن أثناء بنائه كان محاطا بجدار من حجر (اللايمستون) الأبيض يعلو الى إرتفاع يقرب ثلاثة أقدام ، كما يصل إرتفاع بعضها الآخر الى علو (١٠ ـ ١٢ قدم) ، وربما وصل بعضها الى قمة التل مكونا برجاً دائرياً من الحجر[٣٩].

واعتمدت فتحة مربعة الشكل نحتت في قطعة من حجر البناء مدخلاً الى غرفتي الدفن . كان تشييد المدفن المزدوج في مقابر البحرين من غرفتين إحداهما فوق الأخرى ، مع إحتفاظ الغرفة السفلية بفتحات قد تكون للأضاءة أو التهوية . كذلك بلّطت ارضية المدفن بقطع حجرية فرشت عليها طبقة من الرمل الناعم ، الذي يتكرر فرشه على أرضية الغرفة العلوية ، مما يدفع للأعتقاد بأن وراء ذلك جانب من طقوسهم الدينية كما أسلفنا قبل قليل .

إن تخطيط غرفة الدفن مستطيلة الشكل تتجه أيضا من الشرق الى الغرب تقريباً ومداخلها في الجهة الجنوبية . كذلك أستخدمت قطع حجرية كبيرة لتغطية سقف حجرات الدفن . ولوحظ أيضاً بقايا ملاط كلسي يغلف الأوجه

الداخلية لغرف الدفن .

يستند تسقيف حجرات الدفن في مقابر البحرين على طريقة فنية في البناء تعتمد إحداث ميل تدريجي للجدران نحو الداخل قليلا ، ويكون الميلان نحو الداخل أكثر وضوحاً عند مستوى الغرفة العلوية ، وبالتالي تختصر مسافة الفضاء عند النهاية العلوية للجدران بالقياس الى المسافة عند الأرضية ، وذلك يساعد في تسهيل عملية التسقيف .

وقد وضح من حفريات قبور ، عالي الكبيرة ، أن التل الترابي ، كان يحيط البناء الحجري قبل الشروع بدفن الميت ، لذلك عملوا ممرات حجرية عمودية تخترق قة التل الترابي وتوصل الى مدخل حجرة الدفن في الناحية الجنوبية ، أو أفقية تتألف من صفين من الحجارة يمتد من سفح التل الى مدخل حجرة الدفن ، وكان المدخل يغطى أو يسد بقطع من الحجارة الكبيرة بعد الانتهاء من الدفن .

المقابر السلوقية :

إن التل الرملي الذي يغطي معظم مدافن البحرين يواصل تغطيته للمقابر من العهد السلوقي (القرن الثالث ق . م .) ولكن المقابر السلوقية ثبت كونها مدافن جماعية تضم عددا من اللحود . أو تكون مجموعة من القبور الصغيرة تغطيها مجتمعة تلة ترابية كبيرة .

وتنتشر هذه القبور على جانبي شارع البديع ، ومنها ما يقع غرب معبد بربار . وقد شيدت معظم المقابر السلوقية بحجارة مهندمة وبعضّ الحجارة تحمل رسم الحروف الأبجدية اليونانية مما يرجح نسبتها الى العصر السلوقي ولا تلتزم هذه القبور باتجاه معين في مخططها الأرضي . وقد تعرضت كغيرها من مدافن البحرين لأعمال سرقة واسعة ، فتسبب ذلك في تلف ما أبقاه السراق من مواد أثرية ، ولكن القليل من الفخار أو الكسر الفخارية مع متفرقات أثرية أخرى ككسر الزجاج والنحاس والحجر والحديد والأصداف والعاج والرخام ، تتفق جميعها مع الطرز الفنية والتقنية لصناعات الفترة السلوقية (الهلينستية) .

محتويات مدافن البحرين :

إن معظم مقابر البحرين التي أستكشفها المنقبون إبتداءً بديوراند ، وحتى القبور التي نقبتها البعثة الدانمركية ، قد تعرضت لأعمال سرقة سابقة ، مما تسبب في بعثرة مواد الدفن والهياكل العظمية ، مع إتلاف جزء كبير من بناء القبر . لذلك كان موضوع تحديد تواريخ هذه المدافن من المواضيع التي شغلت الباحثين لفترة من الزمن .

تجمعت لدى الباحثين من خلال التنقيبات في هذه القبور ، مجاميع من المواد الأثرية المتفرقة ، منها فخاريات معظمها مهشم ، لكن تم تركيب بعضها وإعادة رسم بعضها الآخر . وكذلك قطع من العاجيات وبعض المصوغات الذهبية والمعدنية الأخرى ، كخاتم ذهبي وخناجر نحاسية وبرونزية ، ونوع من الكؤوس صنعت من قشور بيض النعام ..

إن قشور بيض النعام المستخدمة على شكل كؤوس مدفنية تذكرنا بكسر من قشور بيض النعام عثر عليها داخل مقبرة كبيرة في هجر بن حميد في العربية الجنوبية . وعلى الرغم من أن تخطيط المقبرة العربية الجنوبية يختلف عن تخطيط مقابر البحرين ، حيث أنها مستطيلة الشكل، قسمت بواسطة جدران عموديه على الأضلاع الخارجية ، الى عنابر للدفن ، تذكرنا بأشكال المقابر السلوقية من البحرين ، وهذا يتفق مع تاريخ مقبرة هجر بن حميد ، التي يؤرخها الدارسون بالاستناد الى بعض اللقى الأثرية التي عثر عليها بداخلها الى حدود القرن الثاني ق .م .[٣] ولكن على الرغم من الفارق الزمني الطويل بين مقابر البحرين التي يرجح زمنها بحدود الألف الثالث ق .م . ، وبين مقبرة هجر بن حميد ، يبقى موضوع أستخدام قشور بيض النعام في المواد الدفنية يؤشر طقساً دينياً مشتركاً بين سكان الخليج العربي القدماء وإخوانهم سكان العربية الجنوبية .

كما أن وجود قشور بيض النعام يشير من جانب آخر لتواجد هذا الحيوان في أقسام مختلفة من بلاد العرب ، وذلك أمر له دلالته الهامة في دراسة الأحوال المناخية والجغرافية للأرض العربية .

ومما يجدر التنويه به ، الى أننا نعرف استخدام قشور بيض النعام على شكل أواني دفنية من المقبرة الملكية في أور ، وإن بعض هذه الأواني مطعم بشرائط من الصدف الأبيض والملون ، ويستطيع القارىء مشاهدة بعضها في القاعة السومرية من المتحف العراقي ببغداد ضمن آثار المقبرة الملكية في أور .

إن صلات الخليج العربي بمراكز الحضارة العراقية القديمة ، لا تتأكد من وجود أواني مصنوعة من قشور بيض النعام في المقابر فحسب ، وإنما من كثير من المخلفات الأثرية التي توضح عمق الصلات وديمومتها بين الطرفين ، ومن ذلك العثور على أختام أسطوانية عراقية الصنع في مدافن البحرين جنباً الى جنب مع أختام دائرية دلمونية الطراز .

يمتد عمر المدافن التلّية في البحرين ما بين الألف الثالثة ق . م . والى العهد السلوقي في القرن الثالث ق . م . ، ونظراً لكون مادة تشييد هذه القبور هي الحجر التي تقاوم فعل الزمن ، فالأرجح أن هذه المقابر أستمر أستخدامها لفترات زمنية طويلة .

ومن الأمور الهامة التي تخص مدافن البحرين ، هو تأكد البعثة الدانمركية بعد توسع أعمال تنقيباتها في جزيرة البحرين ، كون بناة هذه المدافن هم سكان البحرين القدماء ، ونستطيع أن نطلق عليهم تسمية «الدلمونيين» نسبة الى «دلمون» أسم بلادهم القديم . فقد عثر في بعض المدافن على فخار متميز ، ترتبط صناعته في شكله ولونه بالبحرين نفسها ، وقد عثر على هذا النوع من الفخار الأحمر اللون في معبد «بربار» أحد معابد البحرين القديمة ، وكذلك في الطبقة الثانية أو المدينة الثانية من «دلمون» القديمة ، التي عثر على طبقاتها البنائية أسفل جدران القلعة البرتغالية على الساحل الشمالي الغربي للبحرين . وهكذا أصبح بالأمكان تأرخة بعض هذه المدافن الى حدود ٢٣٠٠ سنة ق . م .[٢١] .

كذلك أصبح تأريخ مجموعة أخرىٰ من القبور الى حدود فترة العهد البابلي القديم (٢٠٠٠ ـ ١٨٠٠ ق . م .) مؤكداً ، وذلك بدليل الأختام الأسطوانية العراقية الصنع التي عثر عليها داخل القبور[٢٢]

ثم كانت مخلفات مجموعة أخرى من القبور بموادها من أختام أسطوانية وفخاريات العهد البابلي الحديث تؤرخ هذه المجموعة للفترة البابلية الحديثة وهكذا يتبين من المواد الأثرية التي وصلت أيدي الباحثين ، على الرغم من قلتها ، الأمور التالية :

١ ـ أن قبور البحرين تغطي فترة زمنية طويلة ربما تكون بطول عمر الحضارة القديمة في البحرين والتي نصطلح على تسميتها بالحضارة الدلمونية .

٢ ـ أن بناة هذه القبور هم سكنة البحرين القدماء ، والذين مارسوا أشكال النشاطات الحضارية المختلفة وكان من أبرزها مساهماتهم التجارية على الطريق التجاري الكبير الذي ربط بلاد وادي الرافدين بمراكز الخليج العربي ومراكز حضارة وادي السند القديمة . وقد تأكد ذلك من أكتشاف الفخار الدلموني الأحمر اللون في المدافن والمستوطنات على نفس الجزيرة . كذلك أكدت الأختام الأسطوانية العراقية الصنع تبعية هذه القبور لسكان دلمون القدماء (البحرين) لأن الدلمونيين كانوا وراء نشاطات تجارية واسعة مع مراكز مدن بلاد وادي الرافدين .

٣ ـ وبعد الكشف عن مقابر حجرية وباعداد كبيرة تصل في واحة «جبرين» فقط لحدود (٥٠,٠٠٠) قبر ، وهي الواحة التي تقع في داخل أرض الجزيرة العربية حيث تبعد مسافة (٣٠٠) ميل عن ساحل الخليج عند منطقة الهفوف كذلك تنتشر المدافن في معظم أنحاء الأرض العربية في المناطق المجاورة للخليج العربي ، مثلما كشف عن أعداد منها على أطراف قرية الثاج التي تبعد حوالي (٧٠) ميلاً عن ساحل القطيف . لذلك كان أعداد المقابر الكبيرة هذه في الأرض العربية المجاورة للخليج العربي دليلاً على نفي الرأي القديم الذي كان يرى في كون جزيرة البحرين أعتمدت مكاناً خاصاً للدفن من قبل سكان الأرض العربية المجاورة .

قبور جبرين وقطر :

وقبل أن ننتقل في حديثنا عن المقابر صوب الأقسام الجنوبية للخليج العربي ، نود أن نشير وبسرعة الى مجاميع من القبور الحجرية في الأقسام الوسطى من منطقة الخليج العربي ، إن سبب الأشارة السريعة الى هذه القبور دون تفصيل هو نقص أعمال التنقيبات ، وبالتالي الصورة المشوشة حالياً عنها ، من حيث طراز بنائها أو مخلفاتها أو تاريخها .

سبق لنا أن أشرنا قبل قليل الى واحة جبرين الواقعة في الأقسام الشرقية للمملكة العربية السعودية . وهي واحة كبيرة يرتادها الرعاة موسمياً في فصل الربيع . ولكن الأعداد الكبيرة من القبور الحجرية (الرجم) التي تنتشر على حافات التلال المحيطة بالواحة ، وفي وسطها أحياناً ، يشير الى